سر الشياطين الحمر في البيرة

روضة الفرخ الهدهد

٨١٣ المؤلفة روضة الهدهد قصص أطفال ١٩٨٧
روضة

(٣٦) صفحة
ر : أ (١٩٧٨/٨/٣٧١)
١ ـ القصة القصيرة ـ دار كندة للنشر والتوزيع
عمان الأردن ص. ب ٤٥ تلاع العلي

رقم الاجازة المتسلسل ١٩٨٧/٨/٢٩٣
رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
١٩٨٧/٨/٣٧١

كلمة

في مدينة « البيرة » وفي « حي الشرفة » عشت سنتين من عمري ، أمشي فيهما كل يوم في الصباح والمساء إلى مدرستي الثانوية في مدينة « رام الله » . . والبيرة ورام الله مدينتان متجاورتان لا يفصلهما حد ، تقعان قرب مدينة القدس الشريفة . وهما مصيفان جميلان من مصايف الأردن . . .

وفي الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ ، احتلت القوات الاسرائيلية مدينتي البيرة ورام الله ، مع احتلالها للقدس وباقي مدن فلسطين . . وكنت يومها أتابع دراستي الجامعية في القاهرة (مصر) فلم يعد بإمكاني العودة إلى مدينة البيرة المحتلة مطلقاً . . . وكم كان ذلك صعباً ومؤلماً . ومع الأيام ، تعاظم شوقي الكبير - ولا يزال - إلى هذه الأرض الغالية ، شجرها بيوتها شوارعها دكاكينها . . وأهلها . . فلعلّ من يأتي يحدثني عنها بعد الاحتلال !! . . . .

وعندما تحدّثت أم ماهر عما جرى لإبنها في هذه المدينة ، وعن الأحداث الحقيقية البطولية التي يقوم بها الشباب العرب لمقاومة المحتل . . وعن العناء الذي يلاقونه كباراً وصغاراً على أيدي المحتلين الصهاينة في السجون والمعتقلات . . عندها عدتُ إلى الأخبار اليومية التي ترد من الضفة الغربية ، وإلى الأحداث الحقيقية التي تجري هناك وإلى الأهل الذين أبعدوا وطردوا من مدينتهم بعد الاحتلال . . عندها كتبتُ لكم هذه القصة الواقعية . .

ماها روضة

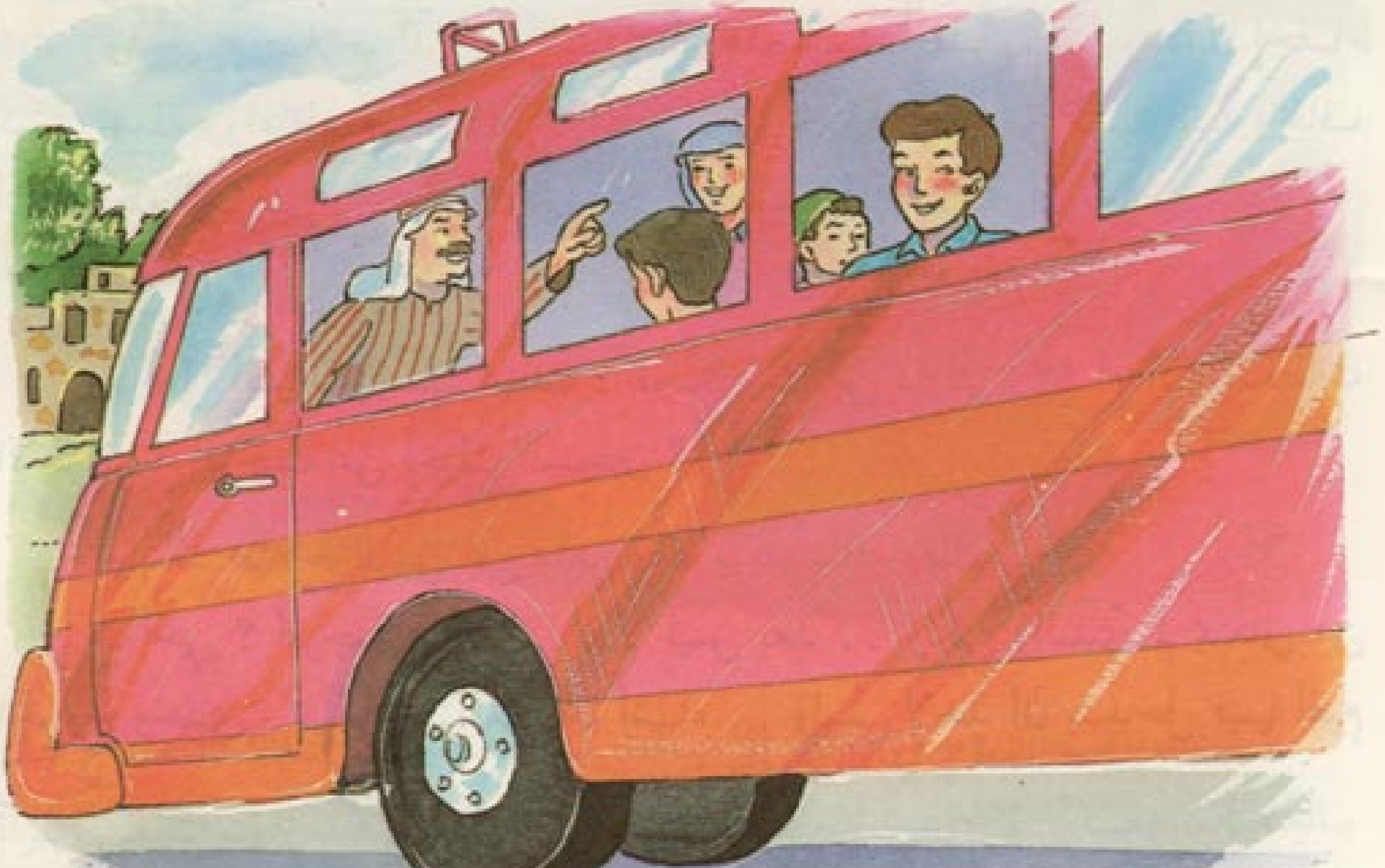

في تمامِ الساعةِ السادسةِ صباحاً كان ماهر يجلسِ في كرسي الحافلة ينتظرُ والديه وإخوته وخالته وأولادُ خالتِه للانطلاق جميعاً في رحلة خاصة من بلدةِ البيرةِ إلى مدينة يافا . . كان ماهر يستعدُ لهذه الرحلة استعداداً خاصاً ، فهو سيأكل السمك ويسبحُ في البحر وسيلعبُ بالرمل ويبني البيوت والجبال ، سيقضي نهاراً سعيداً مع إخوته وأولاد خالته . .

وبينما هو في كرسيه ينتظر ، اذ به يرى عن بُعد صديقَه ، وابن مدرسته صلاح الدين . . لم يكن ماهر قد رأى صلاح الدين منذ مدّة . . وكان كلما ذهب إلى بيته للسؤال عنه تقابله والدته بقولها إن صلاح الدين لم يعد يخرج للحارة ليلعب. ولذلِكَ ، وما أن رآه ، حتى قام من مقعده مسرعاً لملاقاته . . نزل من الحافلة وأقبل عليه مندفعاً ينادي :

ـ صلاح الدين . . صلاح الدين . .

وفوجيء صلاح الدين بمن يناديه في هذه الساعة المبكرة . . وحاول إخفاءَ كيس يحمله وراء ظهره . . كان كاللّص الذي خرج لتّوه يحمل مسروقاته ويخاف أن يضبطه الشرطي . . وتلفت حذراً ليجدَ ماهراً أمامَه يريدُ أن يعانِقَه :

قال ماهر بحرارة :

ـ هل أفرج والدُك عنكَ ، فخرجتَ من دارك . ؟! أم أن السلطات الاسرائيلية أفرجت عن أخيك السجين ؟ . .

وابتعد صلاح الدين عن ماهر ، لا يريد عناقه وقال :

ـ أخي ؟ أفرجوا عنه ؟!. لا لا ليس بعد . . ولكن والديّ لم يمنعاني من الخروج وحدي . . أنا حر أفعل ما أشاء . . وليسَ لأحدٍ أن يتدخل فيما أقوم به . .

قالَ ذلك وابتعدَ وهو يخفي الكيسَ الذي بيدهِ ويرفَعُ رأسه عالياً . .

عجبَ ماهر من موقفِ صلاح الدين . . ما الذي حصل له . . لماذا يقلّدُ كلامَ الرجالِ ويتظاهرُ انه لا يهتمُ بالحديث معه ؟ لماذا يديرُ ظهرَه له ويواصلُ سيرَه مبتعداً ؟. وما هذا الذي يخفيه عنه ؟

لم يتعودْ يوماً من صديقه مثلَ هذا التصرف . . فما الذي حصل ؟ . .

واقتربَ ماهر من صلاح الدين وقال بحماس . .

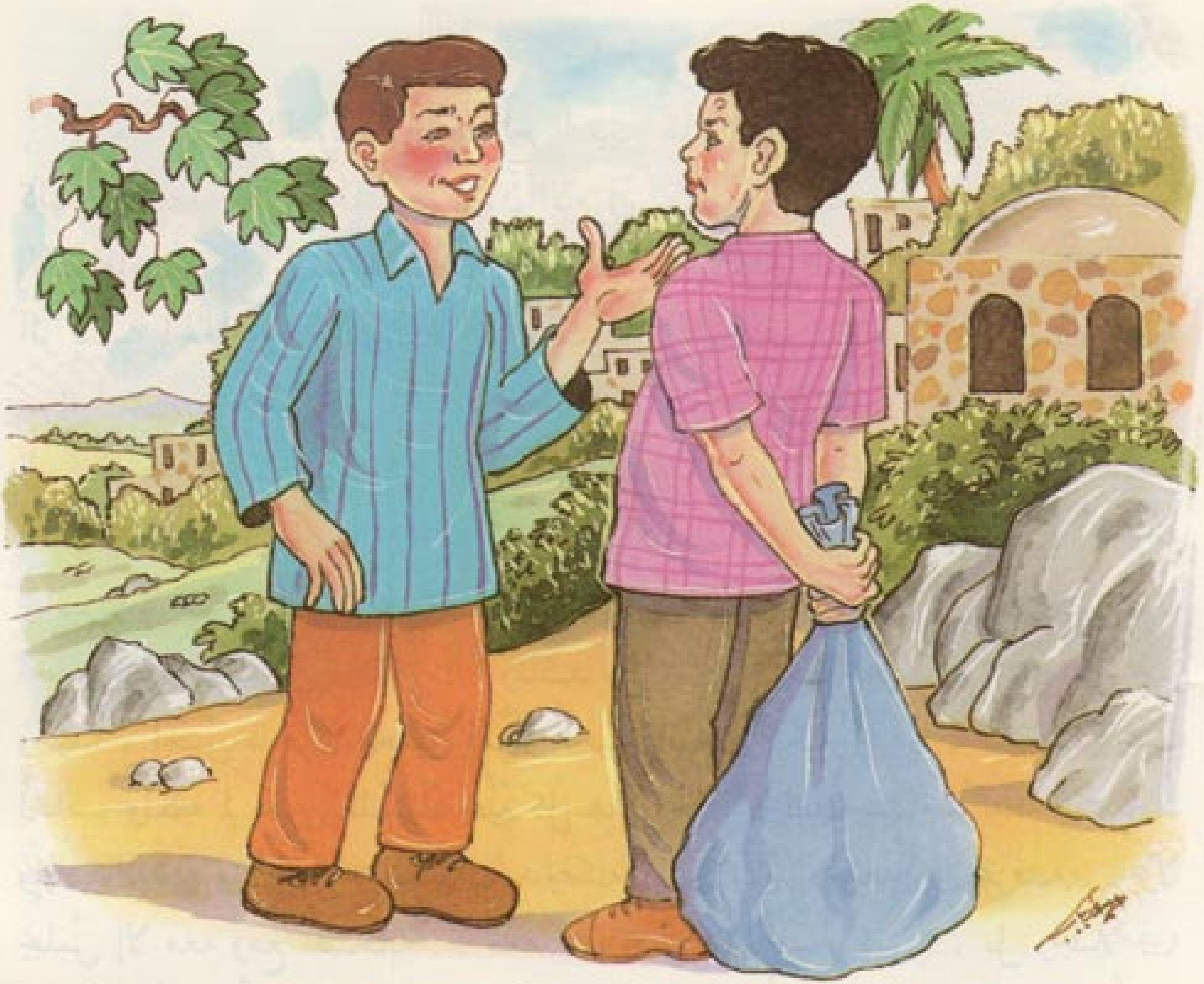

ـ سنذهبُ اليومَ في رحلةٍ إلى يافا . . أطلبْ من والدِك السماحَ لك بالذهاب معنا ، لا داعي لإحضار شيء . . فوالدتي قد جهّزت منَ الزادِ والشرابِ ما يكفي لنا ولك . . تعالَ انظرْ . .

ولكن صلاح الدين نظرَ بكلِ برودٍ إلى ماهر . . تفحَّصَهُ من رأسِهِ إلى أخمصِ قدميه ثم قال :

ـ لا . . لديّ عملٌ مهم !!

ما هو العملُ المهمُّ هذا الذي يمنعُ صلاح الدين من النزهةِ ، مجاناً ، في يوم الجمعةِ وإلى يافا الجميلةِ ؟؟

الدين .. فلم يعدْ باستطاعتِهِ الحصولُ على أي مطلب تقريباً .. أحسَّ بالذلِّ والفقرِ والجوعِ فلم يعد يريدُ أن يرى أصحابَه أو يخرجَ من بيتِه .. فأخذ يخطِّطُ ويفكر !!

- ٣ -

ضجّتِ الحافلةُ بالقادمين .. وانتشرَ الصغارُ يأخذون مقاعدَهم ويتصايحون .. اختارَ كلُّ واحدٍ مقعداً ثم عدَلَ عنه إلى مقعد آخر .. ثم اندفعوا جميعاً إلى المقعدِ الخلفي الكبير .. وتعالى صوتُ أمِّ ماهر واختِها يصرخون على الأولاد حتى يسكتوا ويهدأوا .. وأخذ السائقُ يتناولُ الأغراضَ من أمِّ ماهر ويرتبُها في مقدمةِ الحافلة .. أخذ صُرَرَ الأكلِ « وتيرموس » الشاي والماء .. وكان ماهر جالساً قرب إحدى النوافذ هادئاً متطلعاً إلى الخارج .. وإذ به يرى أمراً ، فتسمَّرَ في مكانه ، ولم يعدْ يسمعُ صراخَ إخوتِهِ ولا نداءَ أمِّهِ . . .

كانت دوريةُ عسكريةُ إسرائيليةُ ، تمرُّ في ذلك الصباحِ الباكرِ من منعطفِ

الشارعِ . ثلاثُ سياراتٍ عسكريةٍ تحملُ جنوداً وشرطةً اسرائيلية ، تمرُّ متلاحقةً وقد هدّأتْ من سرعتِها بسببِ المنعطف . . وفجأة ظهرَ رأسُ شخصٍ من الجدارِ . . يراقِبُ الشارعَ . . واقتربت السياراتُ ، ومدَّ الشخصُ رأسَهُ وجسدَهُ . . وزاغتْ عينا ماهر بين السياراتِ الثلاث وهذا الشخص . . ورآه يفتحُ كيس النايلون بهدوءٍ عجيبٍ ، فيخرجُ منه كومَةَ حجارةٍ في حجمٍ متوسط ، يَضعُها على الجدارِ ويقفُ بكلِّ ثبات ، فيحملُ الحجرَ الأوّلَ ويطلقُهُ في الهواء !! . .

وانطلقَ الحجرُ الأوّلُ يصيبُ السيارةَ الثانيةَ مباشرةً . . ثم انطلقَ الحجرُ الثاني فأصابَ الزجاجَ الأماميَ للسيارةِ نفسها ، وانطلقَ الحجرُ الثالثُ فأصابَ أحدَ الركابِ . . وآختلَّ توازنُ السيارةِ فانقلبتْ إلى يسارِ المنعطفِ وتوقفت السيارةُ الثالثةُ . . بينما اطلقَ صلاحُ الدين قدميهِ ، يسابقُ الريحَ ، يركُضُ بين البيوت وخلف الجدرانِ صوبَ الوادي ، مختفياً عن كلِ العيون !!

كم مرّةٍ تدرَّبَ على هذا الرمي ؟ كم مرّةٍ تدرّبَ على إعدادِ هذا الكمين ؟ من خطَّطَ معه ؟ من درَّبَهُ يا ترى ؟

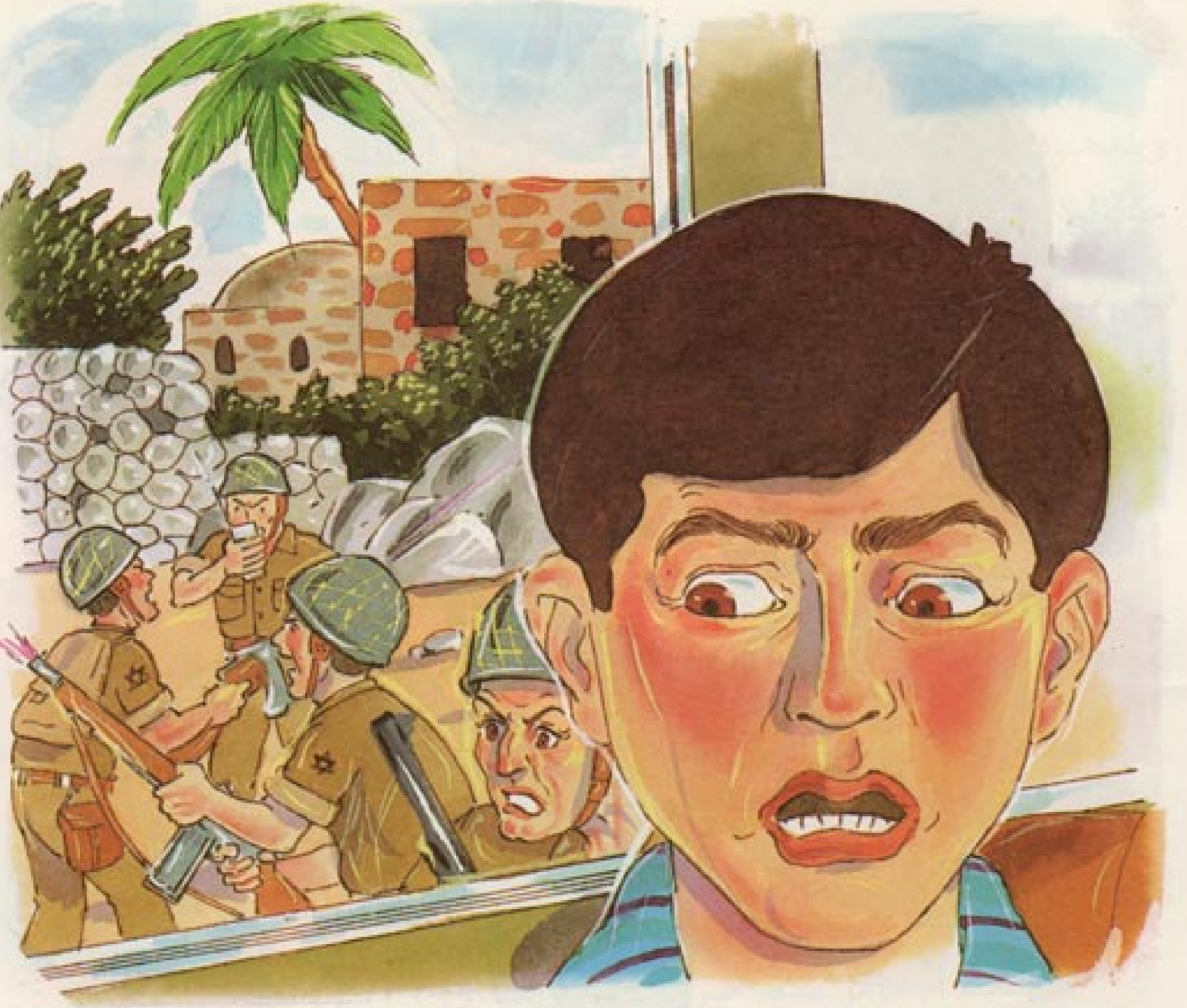

تجمَّدَ ماهرٌ في مكانِهِ . . دُقَّتِ المساميرُ في قدميه وفي حنجرتِهِ . . وأحسَّ بالخطرِ ينتشِرُ دوائرَ تكبرُ وتكبرُ . . كأنَّهُ رأى فوهةَ بركانٍ كبركانِ « فيزوف » في هذا المنعطف . . ورأى أبخرةَ الحِممِ والغازاتِ تتصاعدُ من فوّهةِ البركانِ وتتطايرُ في كلِ اتجاه . . وأحسّ بحرارةِ سائلِ الماجما وكتلِ اللافا تنطلقُ في كلِّ صوْب . .

خرَجَ الجنودُ من سياراتهم ، وانتشروا في المنطقةِ ، يحملونَ بنادقَهم ويضعونَ أصابعهم في الزنادِ . . وآنطلقت الرصاصاتُ في كلِّ اتجاه درن تصويب . . وحملَ أحدُهم جهاز اللاسلكي ورطنَ بعدةِ كلماتٍ فهمَها ماهرٌ عن بُعد ، إنها طَلَبُ النجدةِ « لِتعرُّضِ الدوريةِ لهجومٍ شديدٍ من خليةٍ فدائية لا

يعرفون عددها » ، « وأن سيارةَ القائدِ قد انقلبت بمن فيها ويُخشى من احتراقِها أو انفجار صفائح البنزينِ فيها » ، « وطلبُ سيارةِ إسعافٍ لحمل المصابين من السيارةِ المقلوبة . . . »

وقفَ الجنودُ الإسرائيليون وقد استبدَّ بهم الرعبُ وحسبوا أنهم أمامَ كمينٍ من خليةٍ فدائيةٍ كبيرةٍ مدججةٍ بالسلاح ، فزادوا من اطلاقِ أعيرتِهم النارية . . ولكنهم كانوا قلقينَ على السيارةِ المقلوبة ، وفيها قائدُهم وخمسةٌ من الجنود . . فمن أين يبدأون ؟ . أيلحقون بأفرادِ الخليةِ الفدائيةِ ويشتبكونَ معهم ، أم يساعدونَ القائدَ والمصابين على الخروجِ من السيارةِ خشيةَ انفجارِها ؟ . .

أما من كانَ في الحافلةِ فقد كانوا في ورطةٍ كبيرةٍ أيضاً . . هل ينزلونَ ويذهبون إلى بيوتِهم بسرعة . . أم ينتظرون في الحافلةِ ويُظهرون براءَتهم إذا سُئِلوا ؟ .

وأحسَّ الجميعُ بالخطرِ القادمِ . . وجلستِ المرأتان صامتتين ، حيث ألجمت المفاجأة لسانيهما . . وسكتَ ماهرُ وهو ينظرُ تارةً إلى الجنودِ القادمينَ وتارةً إلى الطريقِ التي انحدرَ منها صديقُه صلاح الدين . .

دخل الجنودُ الحافلةَ وأخذوا يصرخون :

ـ انتم عفاريت . . كلاب . . شياطين . . من منكم رمى الحجارةَ . . أنت ؟ . . أنت ؟ . . مَنْ رماها ؟ . . أنتَ ؟

وأشارَ إلى ماهر فصاحتْ أمُهُ :

ـ يا مصيبتي . . انه لم يتحركْ ابداً من هنا . . نحن ننتظرُ والدَه للتحركِ إلى يافا في رحلة . . ألا ترى ؟ . .

وأخذتْ أمُ ماهر تفتحُ صررَ الأكل والشاي ، ولكنَّ احداً لم يأبهْ لها . . وأشاروا إلى الجميعِ بالنزولِ من الحافلة !! . . .

* * * *

ـ ٤ ـ

« لماذا أنا هنا في هذا المكان وأنا بريء ؟ وأين هو المتهمُ الحقيقي ؟ . وأين أمي وخالتي وإخوتي الصغار ؟ . . حشرونا نحن « الكبار » بعيداً عن النساء والأطفال . . فهل أطلقوا الآن سراحَهم ؟ . . هل عادتْ أمي إلى البيتِ ؟ . . وأين هو أبي ؟ . . وأين هو صلاح الدين ؟ هل هو بين أمهِ وأبيهِ وأنا هنا انتظرُ التحقيقَ في الحادث ؟ . وكيف يكون هذا التحقيق ؟ أسئلةٌ وأجوبةٌ فقط ؟

امتحانٌ كامتحانات المدرسةِ ؟ أم فيه ضربٌ بالهراواتِ والأرجلِ ؟ . . ومتى أستطيع أن أحصل على شربة ماء ؟ لقد عطشتُ ، بل أكادُ أموتُ من العطش . . وماذا يفعل الآن صلاح الدين ؟ يأكلُ الزيتَ والزعتر ، أم يشربُ الشاي المحلى ؟ . . ماذا أفعل يا ربي ؟ »

ولم يكدْ ماهرُ يجلسُ القرفصاءَ ليستريحَ قليلاً من عناءِ الوقوف ، حتى كانَ أحدُ الجنودِ يقتربُ نحوه ، ويشدُّهُ من قميصِهِ وينهالُ عليه ضرباً مبرحاً على رأسه وصدرِهِ وظهرِهِ وقدميه . . وفي ثوانٍ كان ماهرُ ابن الثلاثة عشر عاماً قد أغميَ عليه وسقطَ على الأرضِ بلا حراك . .

كم من الوقتِ مرَّ على ماهر وهو مغمى عليه لا يتحرك ؟ يوم ؟ يومان ؟؟ ومتى جاءَ هؤلاء ؟ الآن ؟ أمس ؟ وأين نحن الآن ؟ . .

فتحَ ماهرُ عينيهِ ليجدَ نفسَه في غرفةٍ صغيرةٍ وحولَهُ عشرةٌ من الشباب ، حدَّقَ بهم ماهر وهو لا يكادُ يصدِّقُ عينيه . . من ؟ سعيد ؟ أحمد ؟ خالد ؟ إبراهيم ؟ ما الذي جاء بكم إلى هنا . . لماذا أتيتم . . أخذ ماهرُ يتنقلُ بين الشبان يعانق هذا و يقبِّلُ ذاك . . فهو لم يرهم منذُ مدّة . . وهو قد اشتاق لكل منهم ولكلِّ مَنْ في الحارة . . وها هم يأتونَ إليه دفعةً واحدة . . نسي آلامَه نسي عطشه وجوعه ، وفرحَ بلقاءِ أصحابِهِ . .

كان الشبابُ برغمِ تألمِهم الظاهرِ من الضربِ والتعذيبِ الذي نالوه قبل حضورِهِم هنا ، سعيدين برؤيةِ ماهر ، وقد سعدَ هو بهم وجلسَ الجميعُ يتحدثون .

كانوا في اعمارٍ مختلفة . . بعضُهُم في الثامنة عشرة من عمره في صف التوجيهي . . وبعضُهُم في الثانية عشرة في الصفِ الأولِ الاعدادي . . وبعضُهُم أصغر وبعضُهُم أكبر . ولكنهم كانوا جميعاً يعرفون بعضهم من المدرسة

ومن الحي . . ولكن شاباً واحداً لم يكن معهم !! وقد عجب ماهر أشدّ العجب من عدم حضورهِ وتساءَل وسأل . .

-أين صلاحُ الدين يا ترى ؟! ألم يُعتقَل معكم ؟!

ولم يهتم أحدٌ بسؤال ماهر عن صلاح الدين . . ومن أينَ لهم أن يعرفوا أين هو ولماذا لم يُعتقلْ . . أم أنه كان عليهم أن يودعوه ويطمئنوا عليه قبل حضورِهم هنا ؟؟ .

وسكتَ ماهرُ على مضَضَ ، فهل يكونُ صلاح الدين حراً طليقاً وهو وعشراتُ الشبان هنا يكتوون بنارِ هؤلاءِ الجنودِ الاسرائيليين ؟ . .

❋ ❋ ❋ ❋

- ٥ -

في غرفةٍ طويلةٍ باردةٍ ، وفي إحدى زواياها وعلى أرضها جلستْ المرأتان أم ماهر وأختُها تتهامسان . . كانت أمُ ماهر تضربُ يديها واحدةً بالأخرى بعصبيةٍ ظاهرة وتقول :

- ملعون شيطان هالأولاد . . يضربون الجنودَ الاسرائيليين ويختفون . . ملعون شيطانهم . . ماذا سينفعُ الحجرُ أمامَ البندقية . . ماذا يفعلُ السجينُ أمامَ السجّان . . ماذا يفعلُ الضعيفُ أمامَ القوي . . ومن هو الأقوى ؟ نحنُ أم هم ؟ يحملُ الواحدُ منهم « النقيفةَ » ويختبىءُ خلفَ بيتٍ أو منعطفٍ ، ويرمي السياراتِ الاسرائيليةَ فتقومُ القيامة ، ويظنون أن هناك خلايا فدائية ، فيلقون القبضَ على كل شبابِ المنطقة . . فماذا استفادَ هؤلاءُ الشباب من الحجارةِ ؟ .

قالتْ أختُها وهي تخفي ابتسامةً خفيفةً بصوت هامس :

- ويشتري الولدُ منهم زجاجةَ (بيبسي) ثم يحشوها بنزيناً أو كازاً ، ويضع الفتيلَ ويُلقيها على سياراتِهم ، فتنقلبُ أو تحترق . . كأنهم أصحابُ أكبرِ مصنعٍ

للقنابل . . والله شياطين . بل والله فدائيون شجعان . .

ـ بل هؤلاء الأولادُ لا يقدِّرونَ ما يقومون به . . هل تذكرين جارتنا أم محمود عندما نسفَ الاسرائيليون بيتَها ؟. بيتها الذي بنته بيديها حجراً حجراً طوال سنينَ الغربة التي قضاها أبو محمود في الخارج . . كان يرسلُ لها النقودَ وهي تدَّخِرُها ، حتى بنتِ البيتَ . . ولما كَبرَ ابنُها محمود ، ماذا استفادتْ منه ؟ رمى زجاجةً حارقةً على دوريةٍ اسرائيليةٍ ، فألْقَوا القبضَ عليه ونسفوا بيتَ والدتِهِ ، دكوه حجراً حجراً . . ماذا استفاد محمود وماذا استفادت هي . .؟ هو في السجن وهي في الشقاء ، تبدأ حياتها من جديد ، كأنَّ الأيام تعودُ إلى الوراء . .

قالت الأختُ بهمسٍ خشيةَ أن يسمعَها أحد :

ـ يا أختي ، زجاجةُ محمود هذه كانت ضربةَ معلم ! قتلتْ ضابطاً كبيراً

وشلَّتْ آخر . . هل نسيتِ يـومها كم فِـرحَ الناسُ بـالخبر ؟ . كـان انتقامـاً رائعاً ومتقناً من دوريةٍ طالما أزعجتْ كل أهلِ البلدِ في ليلهِم ونهارِهم ، والله يـومها ، كلُّ ، رجلٍ وكلُّ امرأةٍ وكل شابٍ تمنى لو كان هو محمود . . هل نسيت ؟ . .

ـ لم أنسَ ، ولكن لم أنسَ أيضـاً أمّـه العجوزَ تبكي عـلى أنقـاضِ بيتِهـا وحجارتِهِ المنسوفة .

ـ إنهم جنود محتلون . . فهل تريدينهم ان يظلّوا آمنين ؟ . .

ولم تكملْ المرأتان الحديث . . فقد دخلَ القـاعة جنـديٌ وأخذ يضـربُ أمَ ماهر ضرباً مبرحاً بينما أخذت أختها تصيح :

ـ حرام يا زلمه . . حرام عليـك . . المرأة راح تمـوت بين إيـديك . . شـو عملت . . والله ما عملت شيء . .

وكـما هـاجمهـا فجـأة ، أوقف الضـربَ فجـأةوآختنقَ صراخ الأولادِ في صدورهم . . وآنكمشتْ المرأتان في الزاويـة ، وخيَّم الصمتُ على الجميـع ، إلا أنينُ أم ماهر ، ونشيجُها المحزن . .

* * * *

ـ ٦ ـ

بعد أيام انتشرَ الخبرُ . . وآنطلقَ الصغارُ إلى بيوتِ أهلهِم يخبرونهم أن أمَّ ماهر وأختَها وأطفالَهما الصغار قد عادوا من السجن ، مشيـاً على الأقـدام . . وما إن أَطلَّتِ المرأتانِ من رأس الشارع في «حي الشرفة»، حتى آنـطلقت نساءُ الحيِ من بيوتهن يُطلقِنَ الزغاريدَ والهتافاتِ وانهمرتْ الدموعُ من العيون ، كلُّ العيـون حزناً وفرحاً ، فالحزنُ والفرحُ في فلسطين متلازمان !

ومن خلفِ الجميـعِ ، أقبل صـلاحُ الدين متسللاً يقتـربُ بحذر ، ولكن بسرعةٍ وهدوء إلى حيث تقف المرأتان ، أقبلَ كأنهُ الماءُ ينسابُ بين الصخـورِ دون أن يُحسَّ بـه أحد ، وقفَ وراءَ والـدتِهِ يسمـعُ ما يقـال . . كان يـريدُ أن يسمـعَ ويعرفَ كل ما جرى ويجري في السجن . .

« أربعةُ أيامٍ ونحنُ جالستان في قاعةٍ كبيرةٍ على الأرض . . ننامُ ، نستيقظُ ، نجلسُ ، نأكلُ ، نشربُ في مكانٍ واحدٍ ، لا نتحركُ منه ، لا فراش ولا حتى حصيرة صغيرة نضعُها تحتنا . . نضعُ الأولادَ في أحضانِنا خشيةَ برودةِ الأرض ، ثم نتعبُ فنرميهم ينامون عليها . . أربعةُ أيامٍ لم نأكلْ خلالَها إلا قطعة خبزٍ يابسةٍ . . لا نعرفُ ماذا نأكلُ منها وماذا نطعُم صغارنا منها . . وإذا اشتكينا كانوا يردون بهزء :

ـ كلوا هذا الآن . . والوجبةُ التاليةُ ستكون لحم خروف بلدي بالرز والصنوبر واللوز . . والسلطة مع المايونيز والخل . . »

وتساءَلَ صلاح الدين بلهفة :

ـ وهل أحضروا لكم ذلك ؟ . . هل يقدمون لأخي وللسجناء أكلاً جيداً أم خبزاً يابساً فقط ؟. هل ينامون على الأرض الباردة أم يعطونهم البطانيات ؟. هل التقى أخي بالسجناء الجدد ؟ . . هل علم بما جرى لسيارات العدو ؟؟. .

تعاظمَ شوقُ صلاح الدين لأخيه الكبير . . واشتاقَ لرفاقِهِ واصدقائِهِ الذين اعتقلوا أيضاً . . كان يحبُ أخاه ويشتاقُ إليه كلَّ لحظةٍ وكل ثانيةٍ في الليل والنهار . . وهو لم يرمِ الحجارةَ على الدوريةِ الاسرائيليةِ إلا إنتقاماً له . . فقد انتظرَ خروجَهُ من السجنِ شهراً كاملاً . . فلما فرضوا على والدِهِ غرامة مالية كبيرة قرر بينه وبين نفسِهِ أن يجعلَهم يدفعونَ الثمنَ مضاعفاً . . ولكن هذا العدو اللعين قد اعتقلَ معظمَ رفاقِهِ وزجَّ بهم في السجنِ فماذا يفعل ؟؟.

ـ ٧ ـ

كلُّ سيدةٍ من سيداتِ الحيِّ أحضرتْ صحناً مملوءاً بالطعامِ المتوفرِ . . وفي دقائق كانتْ على الأرضِ في بيتِ أم ماهر أصنافٌ وأصناف من الطعامِ الشهي . . وبينما الجميعُ يأكل ، كان سعيدُ واثنان من المعتقلين في السجنِ ، يأكلون شيئاً آخر ، شيئاً مؤلماً حقاً .

❊ ❊ ❊ ❊

- ٨ -

هبّ ماهرُ يمسكُ بيد سعيد ، ويجلِسُهُ على جاكيته التي فرشها له على الأرض ، وأخذ يمسحُ وجهه بمنديلِهِ وهو يضمرُ في نفسِهِ أمراً . .

« إلى متى سيظلُ متحملاً هذا الوضع الخطأ . . هو ورفاقُهُ ينالونَ العذابَ والضربَ ، وصلاح الدين حرٌّ طليقٌ ؟ . . يجبُ أن يتحمَّلَ المرءُ نتيجةَ أعمالِهِ . . ويجبُ أن يتحمَّلَ صلاح الدين مشكلتَه . . لقد ظنَّ أنَّ الأمرَ لن يطولَ ساعة أو ساعتين وينتهي كل شيء . . ولكنَّ الساعات امتدتْ وهو لن يصبر » . .

ومن فورِهِ قامَ ماهرُ ينادي على السجان ، كان سعيدُ نائماً من شدَّةِ الإعياءِ والتعب ، وكان باقي الرفاق ما بين نائمٍ أو جالس ، وكان هو يريدُ أن يقابلَ السجّان .

نادى ماهرُ فلم يردَّ عليه أحد . . صرخ ، يا عم ، يا حارس . . يا سجان . . ولم يرد عليه أحدٌ . . كادَ ينفجرُ من الغيظِ . . ضربَ الحائطَ بقبضةِ يدهِ وعادَ إلى مكانِه .

وفتح سعيد عينيه بتعبٍ وقال بإعياء :

ـ لماذا تريدُ السجّانَ يا ماهر ؟

ـ كي أضعَ حدّاً لهذا العذاب . سأقولُ ما أعرف . . سأروي ما شاهدتُ لن أسكتَ بعد اليوم . .

واعتدلَ سعيدُ في جِلستِهِ ، أحسَّ أن الأمر جدٌّ للغاية ، فقالَ بصوتٍ هامس :

ـ وماذا رأيتَ وماذا عرفتَ يا ماهر ؟

ـ رأيتُ مَنْ ضرَبَ الحجارةَ وأعرفُ أين هو وأين بيتُهُ . .

واعتدل سعيدُ في جلستِهِ أكثر . . واقتربَ من ماهرٍ أكثر . . كان سعيدٌ فتى ناضجاً ، فَهِمَ الأمرَ بسرعةٍ وأدركَ أن ماهرَ يعني شخصاً طالما سأل عنه وعن غيابِهِ وعن لعبِهِ بالحجارةِ فقال هامساً :

ـ هل تعني أنك رأيته ؟ . وهل تعني أنك ستخبرُ عنه ؟

ـ نعم .. رأيتُهُ بأمِّ عيني .. بعينيَّ هاتين .. كنتُ في الحافلةِ ودعوتُهُ للسفرِ معنا إلى يافا فرفض .. تكبَّرَ عليَّ .. أحتقرني وجعلَ من نفسِهِ رجلاً .. ولما « عملها » هرب .. وآختبأ بين البيوت .. إذا كان رجلاً حقاً فليأتِ هنا ويتحمَّلْ نتيجةَ بطولتِهِ .. لماذا أنا وأنت وهؤلاء الأصدقاء وليس هو ؟.

ـ ألم يره أحدٌ غيرُك ؟.

ـ أعتقد ذلك وإلا لاعتقلوه وجرّوه جراً ..

ـ أتدينُ صديقَكَ يا ماهر ؟ أتفشي سرَّه الذي لم يره أحدٌ غيرُك ؟.

ـ لم يعدْ صديقي .. رفَضَ صداقتي .. تكبَّرَ عليَّ .. أحتقرني .. منذ سُجِنَ أخوه لم يعدْ صديقاً لأحد .. عادى الجميعَ وأنكرَ الجميع ..

ـ أتدينُ من كان صديقاً لك وتحكمُ عليه بالسجنِ المؤبد ؟ يا ماهر إلى الآن لم يثبتْ على أحدٍ أيُّ دليلٍ برمي الحجارة ، فلماذا نسهِّلُ لهم العمليةَ ، ونعترفُ بأنفسِنا عن أنفسِنا ؟.

ـ ولكننا نتعذبُ وهو في أحضان أمِّه يتلهى .

ـ حتى لـو تعذّبنـا . . فليس الحلُّ أن نعتـرفَ عنه . . أيـامٌ وسنخـرجُ من السجنِ وننسى كلَّ هذا العذابِ وسيسجلون الحادثةَ ضد « الشيـاطين » الـذين لم يمسكـوهم . . وسيبقى الجميعُ أنـا وأنت وهو أحـراراً . . أمـا إذا آعـترفتَ عنـه فسيُسْجنُ مدى الحياة ويُهـدَم بيتُ أهله . فهل تـرضى بذلـك ؟! يا مـاهر عـدوُنا واحدٌ . . ونحنُ لن نستسلمَ له ولن نضعفَ أمامه . . يا ماهر مشوارُنا ضد عدوِنا

طويل . . ويحتاجنا أنا وأنت وصلاح الدين وأخاه . . . فكيف تعتـرفُ عنه ؟ . . ما قام به صلاح الدين كان عملاً بطوليـاً رائعاً ، وليسَ خـطأً يعاقبُ عليـه . . . اصبر يا ماهر وتحملّ ، ولا تعترف فأنت رجل .

كـان كـلامـاً مقنعـاً نـاضجـاً ، وطنيـاً ، صـادقـاً ، ولكنـه لم يكنْ الحـلَّ الأمثل . .

* * * *

- ٩ -

فجأةً . . إذ بالبابِ يُفتحُ ويدخلُ السجانُ ينادي بصوتِهِ المزعج . .

- ماهر . . ماهر عبد اللطيف يحضر إلى هنا . .

وآنتفضَ ماهرٌ من مكانِهِ كأن الكهرباء قد مسّته . . وقامَ من فوره . . نظرَ إلى صديقِهِ سعيد نظرةً عميقةً حزينةً ، خائفةً ، مستنفرةً ، هل ينادون عليه لينالَ نصيبَه من الضرب ؟. هل سيتحملُ ؟. هل سيعترفُ ؟. لماذا ينادون عليه ؟. .

ونظر سعيدُ في وجهه وفي عينيه ملياً . . هل ستتحمل ؟ أم ستعترف ؟ هل ستكونُ بطلاً ؟ أم ستصبح خائناً ؟ وهمس :

- هو وطننا جميعاً . . وهم أعداؤنا جميعاً . .

لم يكنْ ماهرُ يريدُ أن يسمَعَ شيئاً . . لقد فاضتْ مشاعرُهُ ، وتمنى لـو انه لم يولَدْ أصلاً ، ولم يُخلَقْ على هذه البقعةِ من الأرض . . دعا ربَّه كثيراً أن يساعـدَهُ وأن يـأخذَ بيـده ، فلا يعتـرفُ عن صديقِـه ، ولا يتعرَّضُ للعـذاب . . فهـو لا يستطيعُ التحمُّلَ أكثر . .

* * * *

- ١٠ -

في غـرفـةٍ كبيـرةٍ وعـلى مقـاعـدَ جلديـةٍ وثيـرةٍ ومكتبٍ فخمٍ من الخشب الأبنوسي ، جلسَ الضابطُ الاسرائيلي ، مديرُ السجنِ ، ينفثُ الدخانَ من غليونه الضخم . . وجلسَ أمامه رجلٌ له كـرشٌ ورأسٌ مستديـر ، ينفُثُ الدخـانَ أيضاً وتحيطُ به دوائرُ الدخانِ من رأسِهِ إلى أخمصِ قدميه .

أطلَّ ماهرُ برأسه وهو متردِدُ ، ودفعه السجان دفعةً خفيفة كي يدخلَ الغرفة . . ودخلَ ، يقدِّمُ رِجْلاً ويؤخرُ اخرى . . ماذا يريدون مني هنا ؟. ومن هؤلاء ؟ . . مَنْ هذا ؟ .

أحسَّ أنه يعرفُ هذا الذي يجلسُ قبّالةَ مديرِ السجن ، ولكنه لم يتأكدْ من ذلك ، فهو لم يرَ أكثر من ظهره وأكتافه . .

وعلا صوتُ السجانِ وهو يدفعُ ماهر دفعةً قويةً ويقول :

ـ تقدمْ يا ماهر . . ألا تعرفُ عمَّك ؟ سلِّمْ عليه . . !!

ووقَفَ العمُّ ، وأقبلَ على آبن أخيه الصغيرِ يعانِقُهُ ويقبِّلُهُ . . كان ماهرُ واقفاً كلوحِ الخشبِ لا يدري هل يفرحُ برؤيةِ عمه أم يحزن ؟. هل يُقبلُ عليه أم يبتعدُ عنه ؟ هل يسلمُ عليه ويقبلُ يدَهُ أم يعزف عنه ؟. . فلعمِهِ هذا قصةٌ طويلةٌ مع اليهود . . قصةٌ طالما تحدَّثَ بها أهلُهُ وسكانُ حيِ الشَّرَفةِ في البيرة . . قصةٌ جعلتْ كلَّ أهلِهِ وكلَّ سكانِ حيِ الشرفةِ يمتنعون عن التحدثِ معه أو زيارتِهِ . . فلماذا حضرَ الآن لزيارتِهِ في السجن، وماذا يريدُ يا ترى ؟ خيراً أم شراً ؟.

عانقَ عمُ ماهر آبن أخيه بكلِّ حرارةٍ . . لفَّ ذراعيه حولَ صدرِهِ ، فأحسَّ ماهرُ بأضلعِهِ تتكسر . . وآنهالَ عليه بالقبلات ، فأحس بأنه يلسعُهُ بها لسعاً . وربَّتَ على كتفيِهِ يرحِّبُ به فأحسَّ وكأنه يضربُهُ على ظهرِهِ . . دهِشَ من حديثه مع الضابطِ الاسرائيلي بكل هذه الثقةِ ، وقالَ في نفسِه « عجباً . . ! كأنهما صديقان . . ! كأنهما قريبان ! بل كأنهما عميلان » !!

كان ماهرُ يسمعُ أنَّ عمه متورطٌ مع اليهود . . يتعامَلُ معهم ، ويقبضُ منهم ؛ وقد أعطوه منصباً كبيراً في رابطةِ أهالي البيرة بحجةِ خدمةِ مواطني البيرة . . وبذلك أصبحَ في وضعٍ ماليٍ ممتاز . . أخذ يلبسُ أفخمَ البذلات ، ويدخنُ أغلى أنواع التنباك والسيجار . ولكنَّ أهلَه بالمقابلِ لم يكونوا راضين عن

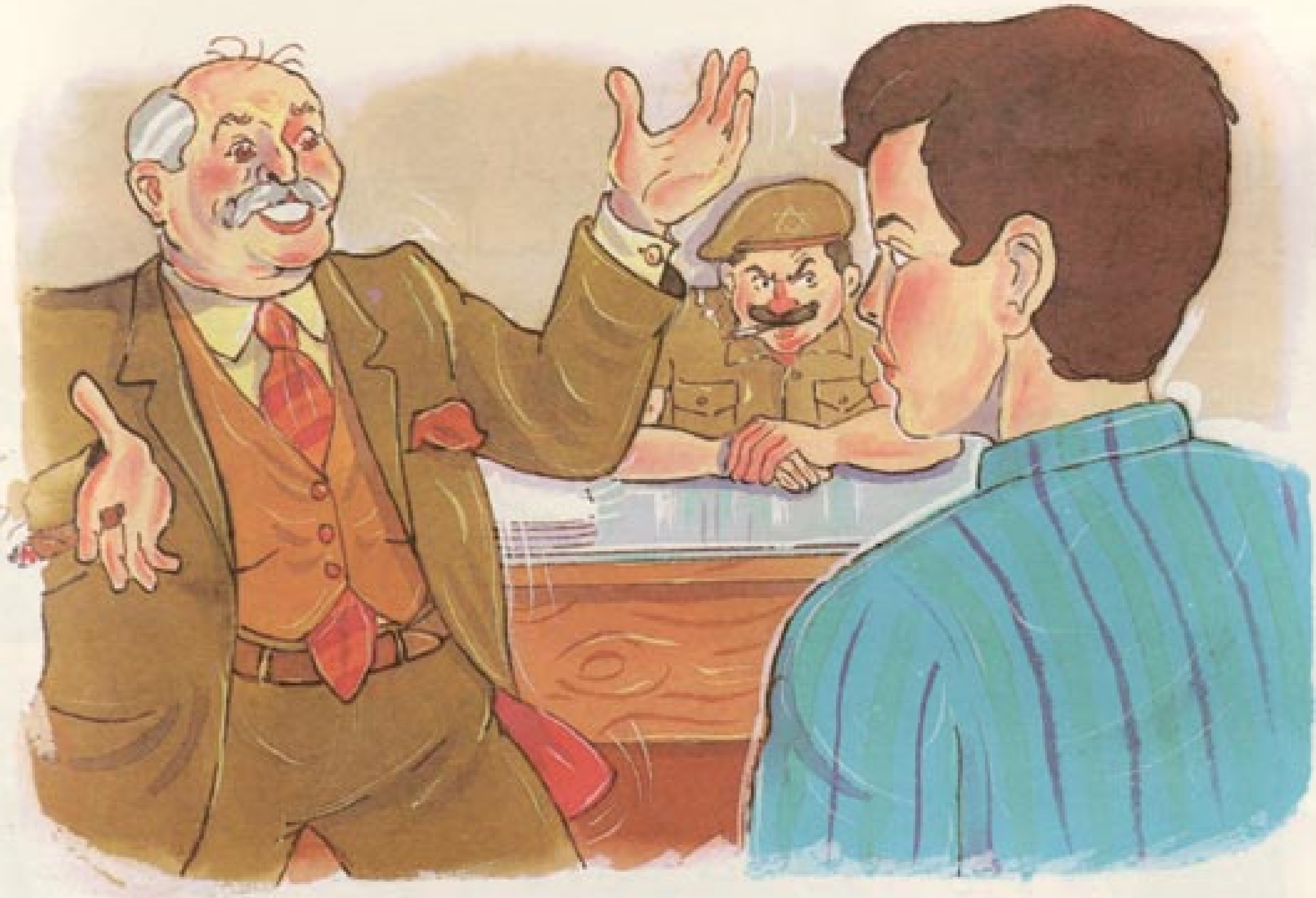

تصرفاتِهِ ، فلم يعودوا يدعونَه إلى أفراحِهِم أو أتراحِهِم . . وقد سمعَ ماهرُ والدَه مراراً يتحدثُ عنه بكلِ مرارةٍ وحزنٍ ، ويعتبرُهُ وكأنه مات أو فُقِد . . فكيف سيكونُ موقفه منه الان ؟ وهل سيقابلُ عناقه بعناق ؟ وقبلاتِهِ بقبلات ؟ أم يبتعدُ عنه ؟ ماذا سيكونُ رأي والدهِ ووالدتِه والأهلِ والجيرانِ . ولكنَّ الأهمَ من ذلك لماذا جاءَ إلى هنا ؟ . .

وقبل أن تسترسلَ أفكارُ ماهر بالمزيدِ من الحيرةِ والتساؤل ، كانَ عمُهُ قد قطعَ عليه طريقَ أفكاره فقال :

ـ يا ماهر أنت الآن حرٌ طليق . . لقد اطلقَ مديرُ السجن سراحَك بسببِ توسطي لديه . عندما علمتُ انك في السجن جئتُ أركض كي أُطلِقَ سراحَكَ ولم يخيبْ الضابطُ الكريمُ رجائي . . فهيا بنا . .

وبحفاوةٍ بالغةٍ أثارت الريبةَ في نفسِ ماهر ، ودّع الضابطُ مديرُ السجن عمَّ ماهر وانطلقَ الاثنان إلى الخارج . .

- ١١ -

« أنا حر ؟. أنا طليق ؟ أخرجُ من هنا وبكلِّ هـذه البساطـةِ ؟. أعودُ إلى بيتي وأهـلي ؟ أتركُ رفـاقي والسجانَ والـزنزانـةَ وسوط التعـذيب وهـراوةَ الجنـودِ وكعوبَ بنادقِهم ونعالَ أحذيتِهم ؟ بكلِّ هذه البساطة ؟؟.

ألا تكونُ رابطةُ أهالي المدينة التي يرأسُها عمي هي لمصلحةِ أبناءِ المدينةِ حقاً ؟ ألستُ أنا ابنُ المدينةِ وأحدُ أفرادِها وها قد خدمني عمي وأنقذني من السجن بكلمةٍ واحدةٍ ؟ لماذا لا يفهمُ الباقون هذا الوجهَ من علاقة عمي باليهود !؟ انني أحبُّ عمي وسأتباهى به ، وسأدعوهُ إلى بيتِنا وسأطلبُ من أبي أن يستقبلَهُ وأن يرحِّبَ به ، فاسمُنا من اسمِهِ ودمُنا من دمِهِ » . .

ومشى قربَهُ وهو مرفوعُ الرأسِ منتصبُ القامةِ . . ولكنه عاد فأحنى قامتَهُ وتباطأ في السير ؛ وقال في نفسه : « ولكنَّ منظرَهُ وهو جالسٌ مع مدير السجن لم يعجبْني . . كان يتحدثُ معه وكأنهما في حالةِ سلامٍ وتعايشٍ ومحبةٍ أبدية . . أين هذا المنظرُ من منظرِ سعيدٍ ورفاقِهِ وهم يتألمون من التعذيب على أيدي ضباطِهِ وجنودِهِ . إنَّ سعيداً لا يقوى على تحريكِ قدميهِ أو يديه ؟. وإنَّ الشباب لا يكادُ الواحدُ منهم يخرجُ من السجن حتى يعودوا فيعتقلوه ، فكيف يكونُ التعايشُ والسلم ؟.

ونظر العمُ وراءه فرأى ـ ابن أخيه ـ متباطئاً فنهرَه فاستعجلَ ، والأفكارُ تتضاربُ وتتعاركُ في رأسِهِ الصغير . .

- ١٢ -

احتضنتْ أمُ ماهر ابنَها بشوقٍ كبير . . وجاءَ الجيرانُ للسلام عليه . . وجاءتْ أمَّهاتُ أصدقائِهِ يسألونَ عن حالِ أبنائهم . . وأحسَّ ماهرُ فجأةً انه أصبح شخصاً مهماً جداً . . بل هو أهمُ من عمِهِ مصطفى الذي لم يسلمْ عليه أحدُ فتركَه وذهب . . وهو أهمُ من صلاح الدين الذي وقفَ في باب المنزلِ

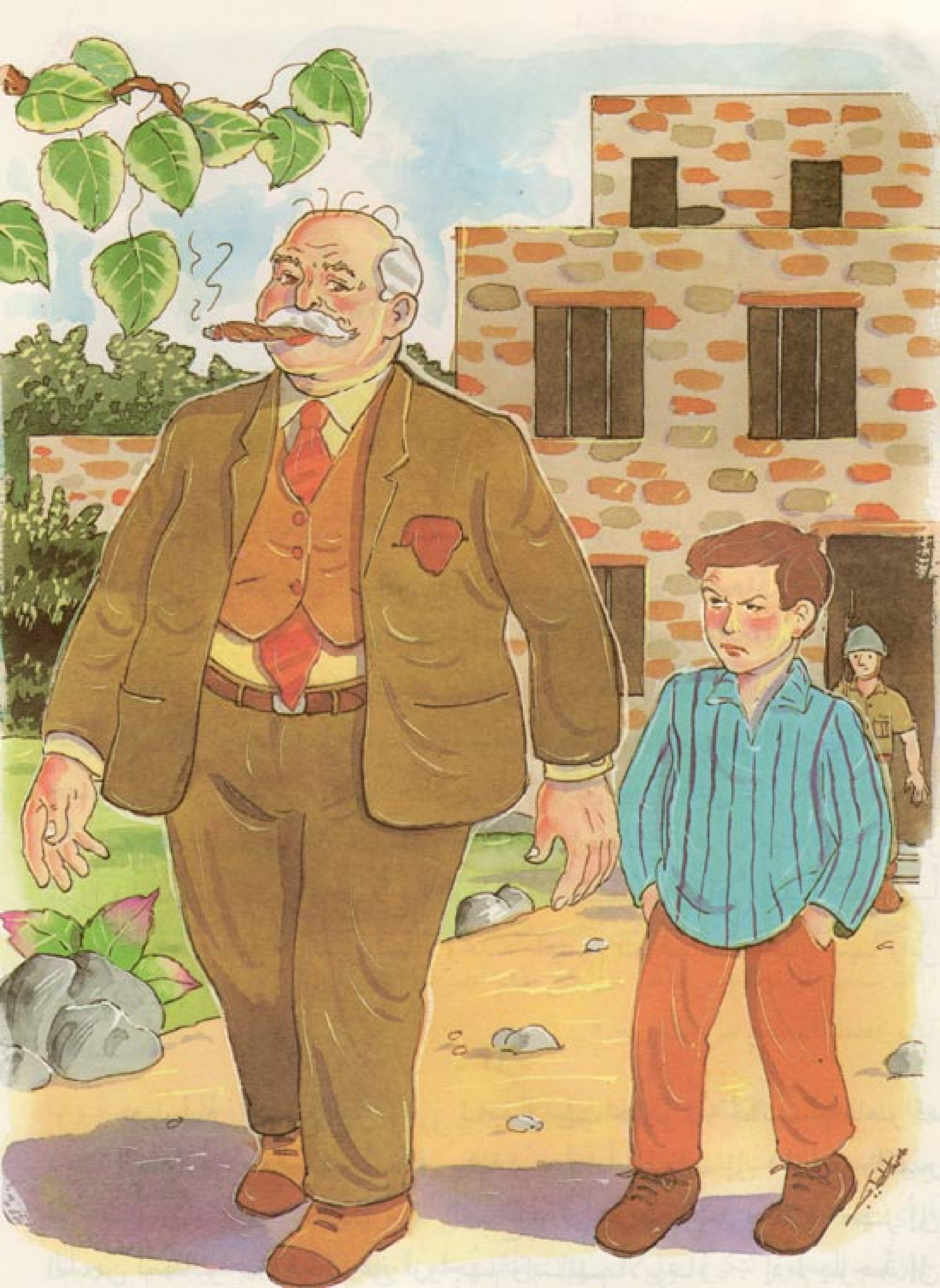

يتسقَّطُ الأخبار ، ولا يقتربُ .. لقد أصبحَ محورَ حديثِ أهلِ الحيِ كلهِ . يسألونَه ماذا يأكلونَ في السجنِ وماذا يشربون ، وأين ينامون وكم سجين في الغرفةِ الواحدة .. وأين يقضون حاجتهَم ؟ وهل تعرضوا للتعذيبِ والضرب ؟ وكيف كانتْ معنوياتهُم .؟ وكانت أمُ كلِ شابٍ من الشبابِ الذين كانوا معه تمطرُهُ بالاسئلةِ الخاصةِ عن ابنها ، وتستمعُ لاجاباتِهِ بكثيرٍ من الاهتمام . وإذا حصلَ وتحدَّثَ أحدٌ غيرهُ كصلاح الدين مثلاً يعلّقُ أو يتدخل ، أسكتوه بحركةٍ لا مبالية .. فالمهمُ هو حديثُ ماهر .. وازداد إحساسُ ماهر بأهميتِهِ وأخذ ينظرُ شزراً « لصديقهِ القديم » صلاح الدين وكأنه يغيظهُ أو يتباهى عليه خصوصاً عندما كانت أم صلاح الدين تسأله وتحدثه باهتمام لتعرف منه أخبار ابنها وابن أخيها سعيد ..

- ١٣ -

بعد أيام اجتمعَ أهلُ الحيِ ثانيةً في بيتِ ماهر .. كانت أم ماهر قد دعتِ النساءَ والأطفالَ للتجمُّع في بيتِها استعداداً للذهابِ إلى الجامعِ الكبيرِ للاعتصامِ .. يجلسون هناك طيلة الصباح ، ثم يخرجون بعد صلاةِ الظهرِ إلى السجنِ ليطالبوا بالافراجِ عن أزواجِهم وابنائِهم الأبرياء .. إذ لم يوجدْ إلى

اليوم أيُّ دليلٍ على اقترافِ أحدهِم «جريمة» الهجوم بالحجارةِ على الدوريةِ الاسرائيلية . .

وكان ماهرُ أهمَّ مَنْ في التجمعِ وأهمَّ مَنْ في الحي . . فهو وأمُهُ يعرفان الطريقَ إلى السجنِ حقَّ المعرفة . . فقد كانا هناك قبل مدةٍ بسيطة . . ونظرَ ماهرُ إلى صلاح الدين نظرةً ثاقبة ، ثم انطلق إلى مقدمةِ المظاهرة . . وحملَ يافطةً كبيرةً كُتِب عليها « أطلقوا سراح المسجونين الأبرياء لعدم وجود الأدلة » . . ومشتْ قربه أمُهُ ، وخالتُهُ وأمُّ سعيدٍ وأمُّ إبراهيم وأحمدُ وعشراتٌ بل مئاتُ السيداتِ . .

ومشتْ أمُّ صلاح الدين معهم . وتقدم صلاحُ الدين حاملاً يافطة هو الآخر ، مطالباً بالافراجِ عن أخيهِ وعن السجناءِ لعدم وجودِ الأدلةِ ضدهم . . . واقتربَ من المقدّمةِ ومن ماهر ، ولكنَّ ماهر أصرّ على تجنّبه . . . ألم يتجنبه هو عندما كان يخطط للهجوم على الدورية ؟ .

وما أن وصلتْ المظاهرةُ إلى مشارفِ السجنِ ، حتى أقبلَ عليها الحراسُ يفرقونها بهراواتهم وأعقابِ بنادِقهم . . وأحسّ ماهرُ بالخوف لبضعِ لحظات ، والتفت فرأى صلاحَ الدين متقدماً رافعاً يافطتَه بكلِ جراةٍ وثبات ، ثم رأى أمَّ محمود جارتَهم العجوزَ تتكئُ على عصاها وتتقدمُ غيرَ آبهةٍ بالجنودِ ورصاصِهم . ورأى

أمَـهُ وخـالتَـهُ وبنـاتِ الجـيرانِ يصرخـون : الله أكـبر . . الله أكـبر . . فلسـطين عربية . . فلسطين عربيـة . . فاحسَّ بـالحماس يمـلأ قلبه وأخـذَ هو الآخـر يرددُ معهم وهو يتقدم . . الله أكبر . . الله أكبر . . فلسطين عربية . . بالـروح بالـدم نفديك يا فلسطين . .

لقـد احتلَّ اليهـود فلسـطين . . احتلوهـا بـدبـابـاتِهم وطـائـراتِهم وأسلِحتهم الثقيلة . . احتلوا الأرضَ وقتلوا الناسَ . . هدمـوا البيوتَ . . واعتقلوا الشبـاب . . ظنوا أنهم بأسلحتِهم ووحشيتِهم سيمـرغون كـرامة الأمـة ويُزهقـون روحها . . ولكنَّ ابناءَ الأمةِ رفضـوا الذلَّ والهـزيمة ، قـرروا مقاومـة المحتل مهـما ارتفع الثمن . . ومهـما زادتِ التضحيات . . وقام الرجالُ والنساءُ والفتياتُ والفتيانُ بالنضالِ بما تـوفر لـديهم من أسلحة . . لمقاومة المحتلين الصهاينـة . . صحيح أن بعضَ الأشخـاص قد بـاعوا أنفسهم للعدوِ والشيطان ، خانوا الوطنَ فكرهَهم الأهـلُ وأدانهمُ الشعبُ . . وأعاقـوا النصرَ . . لكنَّ فلسطين ستبقى عربية عربية . .

كـان ماهـر قد اقتنـعَ بما لا يـدعُ مجالا للشـك : أن الوطنَ لن يتحـررَ إلا بنضالِ أبنائـه وإخلاصِهم وأن مـوقفه بعـدمِ الإعترافِ عن زميلِهِ صلاحِ الدين كان بدايةَ مرحلةٍ جديدةٍ من النضالِ ضد العدوِ ، ستتبعُها خـطواتٌ كبيرةٌ بـإذنِ الله .

- ١٤ -

خرجَ الشبابُ من السجن ، وتعهدَ الأهلُ بكفالاتٍ ماليةٍ كبيرةٍ أن لا يعودَ أحدُهم إلى الشغبِ أو مضايقةِ المحتلين ! خرج الرجاُل والتمَّ شملُ الأصدقاء .

كـانت الفـرحـةُ تعمُ الجميـع . . وكـان الأهـلُ يتعـانقـون في الشـوارعِ والطرقاتِ وأمامَ البيوتِ والـدكاكين ، فها هـو تكاتفُ الأهـالي وإعتصامُ النسـاء والشبابِ والأطفالِ في الجامع ، وخروجُهم في مظاهرةٍ كبيرةٍ إلى السجن قـد أتى أُكُلَهُ ، وها هم السجناءُ قد عادوا إلى بيوتِهم دون أن يثبتَ الدليلُ على أي واحدٍ منهم . . !!

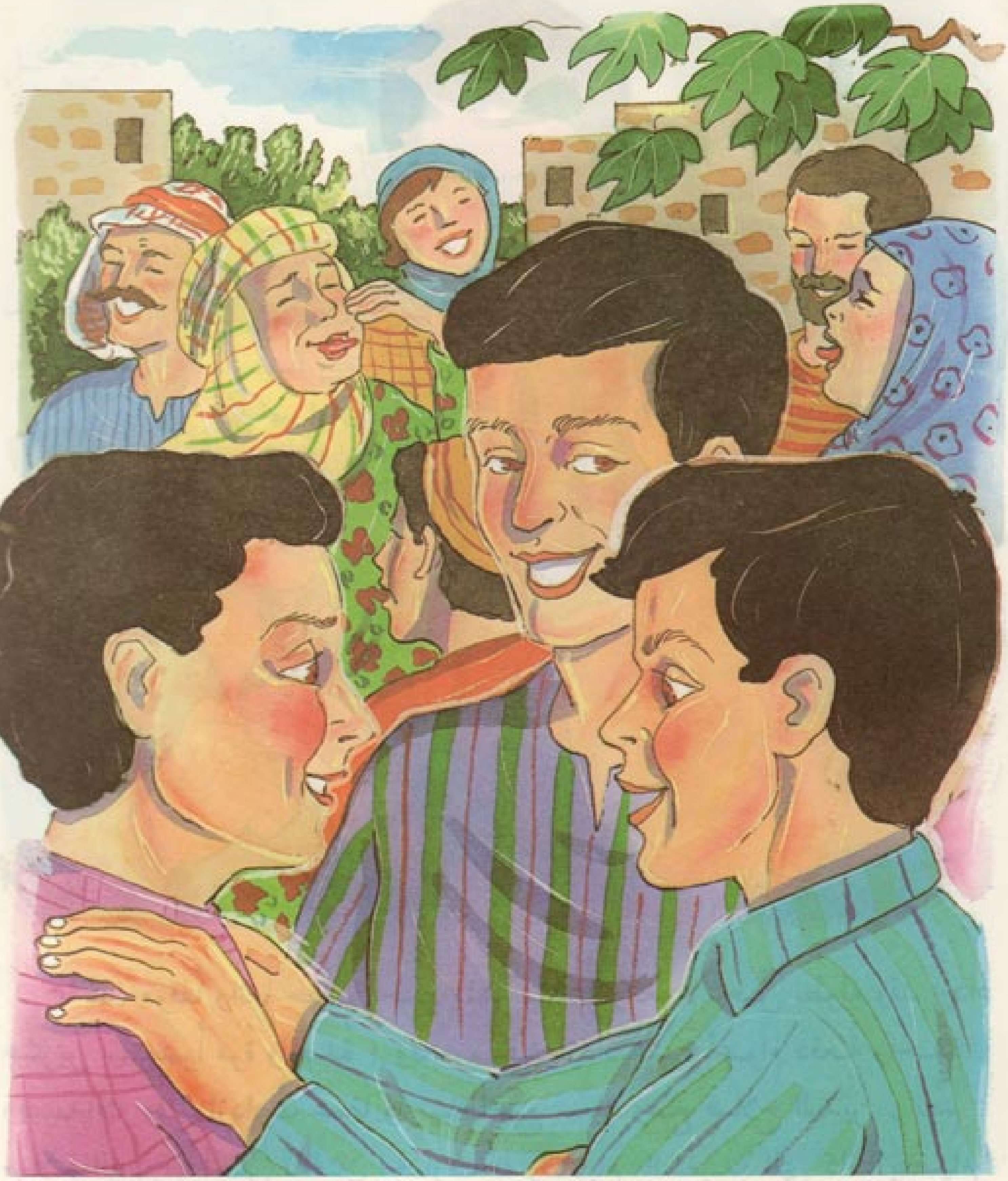

وبخروجِ سعيدٍ من السجن التقى ماهر مع صلاح الدين عنده . شدَّ سعيد على يدِ ماهر وقال هامساً : لقد سجلّوا الحادث ضد مجهول ، لعلَّ الشياطينَ الحمرَ قاموا به . نعم عملتها الشياطين يا رجل ! أليس ذلك رائعاً !!

كانَ موقفاً رائعاً حقاً ، أحس ماهرُ بمشاعر رائعة ، أحسَّ بطولِهِ وقد ازدادَ عشرين سنتمتراً مرةً واحدةً ؛ وبعمرِهِ وقد ازدادَ عشرةَ أعوام دفعةً واحدة . وبصداقتِهِ وقد ازدادتْ عمقاً وارتباطاً مع سعيد ومع صلاح الدين . نعم : صلاح الدين . أحسَّ بالحنينِ الجارفِ له وللأيامِ السعيدةِ التي كانا يقضيانها معاً . إنكسرَ لوحُ الزجاجِ الذي كان قائماً بينهما . . وعانقَ كلٌّ منهما الآخرَ عناقاً حاراً أذابَ كلَّ الجليدِ الذي في نفسيهما . . وتدفَّقَ نهرُ الحبِ : حبُّ الصداقة ، وحبُّ الأرضِ ، وحبُّ العملِ . وتعاهدَ الثلاثةُ على العمل حتى

النهاية . . حتى النصر . . حتى يخرجَ المحتلُ من الأرضِ الحبيبةِ . ويخرجَ كل السجناء من سجونهم . .

قال صلاح الدين : الحجارةُ كثيرة يا أخوة . .

قال ماهر : والزجاجاتُ الحارقةُ وقنابلُ المولوتوف قويةٌ يا أصدقاء . .

قال سعيد : والخناجرُ والمدي متوفرةٌ . . البنادقُ والرشاشاتُ تملأُ مخازنَ الجيشِ الاسرائيلي . . والشياطينُ الحمر قادرون على الوصولِ أينما أرادوا . وانطلقتْ الشياطينُ الحمرُ وما زالت طليقة . .

تمت

كتب صدرت للمؤلفة

روضة الفرخ الهدهد

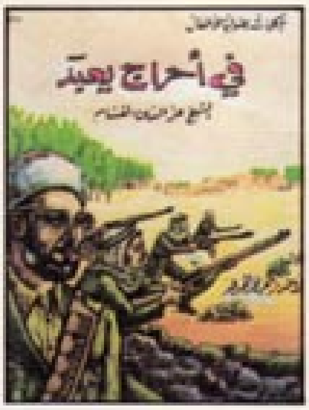

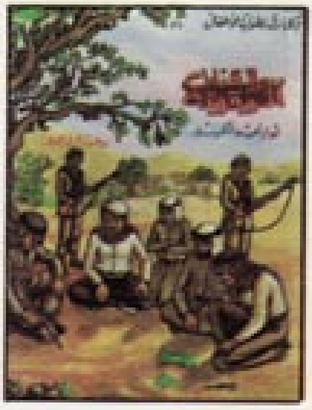
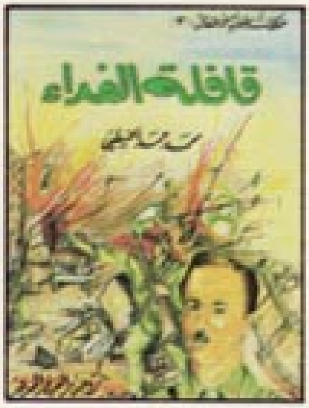

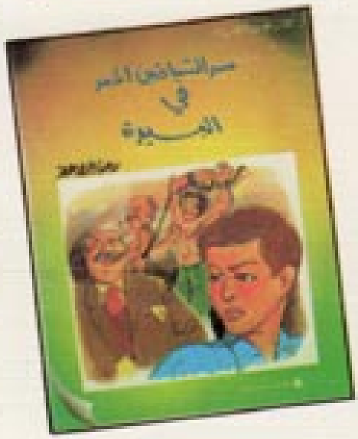

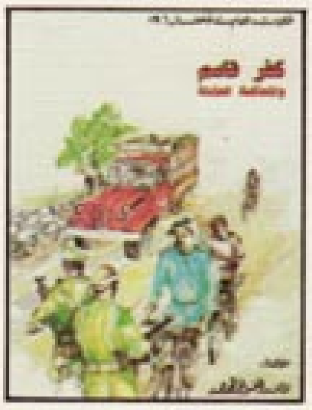

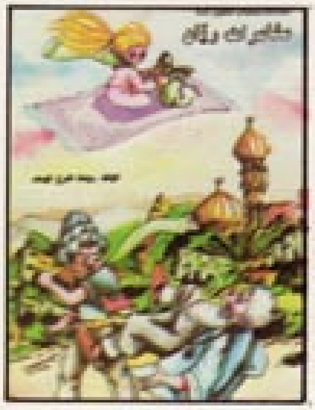

يُطلب هذا الكتاب من
دار كندة للنشر والتوزيع
عمان - الأردن - ص.ب ٤٥ تلاع العلي - هاتف ٨٤١٨٨٦ - تلكس ٢٣٨٤٩
ومن المؤلفة : ص.ب ٤٤٦ عمان - هاتف ٨١٩٢٨٢